لَوْ . . . . !

رأيتُني جالساً في مسرحٍ هزلي بمدينة إسكندريَّة ، كما يجلسُ القاضي في جريمةٍ يحملُ أهلُها بين يديه آثامَهُم وأعمالَهُم ، ويحملُ هو عقلَه وحُكْمَه .

وقد ذهبتُ لأرى كيف يتَساخَفُ أهلُ هذه الصِّناعة ؛ فكان حكْمي : أنَّ السَّخافةَ عندنا سخيفةٌ جدّاً . . .

رأيتُهم هنا ينقُدون العيوبَ بما يُنشئ عيوباً جديدةً ، ويَسْبَحون بأيديهم سباحةً ماهرةً ؛ ولكن على الأرض ، لا في البحر ، وتكاد نظرتُهم إلى الحقيقة الهزليَّة تكون عميَ ظاهراً عمَّا هيَ به حقيقةٌ هزلية ؛ ولا غايةَ لهم من هذا التَّمثيل إلا الرَّقاعةُ ، والإسفافُ ، والخلطُ ، والهذَيانُ ؛ إذ كان هذا هو الأشبَه بجمهورهم ؛ الَّذي يَحضُرهم ، وكان هو الأقربَ إلى تلك الطِّباع العاميَّة البليدةِ ؛ الَّتي اعتادت مِنْ تكلُّف الهَزْلِ ما جعلها هي في ذات نفسها هزلاً يُسْخَر منه .

ولا أسخفَ منْ تكلُّف النُّكتة الباردةِ قد خَلتْ من المعنى إلا تكلُّفُ الضَّحِكِ المصنوع يأتي في عَقِبها ، كالبرهانِ على : أنَّ في هذه النُّكتة معنىً .

فالفنُّ المضحكُ عند هؤلاء إنَّما هو السُّخفُ الذي يوافقون به الرُّوحَ العاميَّةَ الضئيلةَ الكاذبةَ المكذوبَ عليها ؛ الَّتي يبلغ من بلاهتها أحياناً أن تضحكَ للنُّكتة قبل إلقائها ، لفَرْطِ خفَّتها ، ورُعونتها ، وطول ما تكلَّفتْ ، واعتادت . فما ذلك الفنُّ إلا ما ترى من التَّخليط في الألفاظ ، والتَّضريبِ بين المعاني ، وإيقاعِ الغَلَطِ في المعقولات ؛ ثُمَّ لا ثُمَّ بعد هذا . فلا دقَّةَ في التأليف ، ولا عمقَ في الفكرة ، ولا سياسةَ في جمعِ النَّقائض ، ولا نَفَاذَ في أسرار النَّفس ، ولا جِدَّ يؤخذ من هزليَّة الحياة ، ولا عظَمَةَ تُستخرجُ من صغائرها ، ولا فلسفةَ تُعرف من حماقاتها .

والفرقُ بعيدٌ بين ضحكٍ هو صناعةُ ذهنٍ لتحريك النَّفس ، وشَحْذِ الطَّبع ، وتصوير الحقيقة صورةَ أخرى ، وبين ضحكٍ هو صناعة البلاهةِ لِلَّهو ، والعبث ، والمَجَانةِ[1] لا غير .

* * *

---

(١) « المجانة » : مجن الرجلُ مجوناً ومجانة : قلَّ حياؤه ، وكان لا يُبالي قولاً ولا فعلاً ، فكأن وجهه صار صلباً ، فهو ماجن .

وكان معي قريبٌ من أذكياء الطَّلبة المتخصِّصين للآداب الإنجليزيّة ، فلم نلبثْ إلا يسيراً حتَّى جاء ثلاثةٌ من ضبَّاط الأسطول الإنجليزيِّ ، فجلسوا بحذائنا صفّاً تلوحُ عليهم مَخَايِلُ الظَّفَر ، ولهم وَقَارُ البُطولة ، وفيهم أرواحُ الحرب ؛ وهم يبدون في ثيابهم البيض المطَرَّاة[1] كأنَّهم ثلاثةُ نُسورٍ هبطتْ من الغمام إلى الأرض ، فلأعينِها نظراتٌ تدور هنا ، وهناك تُنكِرُ ، وتعرف .

وأعجبني أن أراهم في هذا المكان الهزليِّ الممتلئ بالضُّعفاء ، كأنَّهم ثلاثُ حقائقَ بين الأغلاط ، أو ثلاثُ أغلاطٍ كبيرةٍ . . . وكان أبدعَ ما أراه على هيئة وجوههم وأُسَرِّ له ، تواضعُ هذا الاستعدادِ الحربيِّ ، وتحوُّله إلى استعدادٍ للسُّخرية . . . .

ثُمَّ تأملتُهم طويلاً ؛ فإذا صَرامةٌ ، وشهامةٌ ، وسَكينةٌ ، ووداعة ، وحُسْنُ سَمْتٍ ، وحلاوةُ هيئة في جِلْسةٍ رزينةٍ متوقِّرةٍ ، لا يُشبهها في حسِّ النَّفس ؛ الَّتي تَعرف معانيَ القوَّة إلا وضعُ ثلاثةِ مدافعَ مُصَوَّبة . .

وجعلتُ أقلِّب عينيَّ في الناس الموجودين ، ومَلامحهم ، وهيئاتهم ، ثمَّ أرجعُ البصرَ إلى هؤلاء الثَّلاثة ، فأرى المصريَّ كالمقتنع بأنَّه محدودٌ بمدينةٍ ، أو قريةٍ لا يعرفُ لنفسه مكاناً في غيرهما ، فهو من ثَمَّ لا يَرحل ، ولا يُغامرُ ، ولا تتقاذَفُه الدُّنيا ؛ وأرى الإنجليزيَّ كالمقتنع بأنَّ كلَّ مكانٍ في العالم ينتظر الإنجليز . . .

وَخُيِّلَ إليَّ والله ! أنَّ رجلاً من هؤلاء الإنجليز الأقوياء المعتدِّين بأنفسهم لا يُهاجر من بلاده إلا ومعه نفسُهُ واستقلالُه ، وتاريخهُ وروحُ دولته ، وطبيعةُ أرضه ؛ فهو مستيقِنٌ : أنَّ الله لا يرزقه رزقاً أيَّ الرزقِ كان على ما يتفق ، بل رزقاً إنجليزياً ؛ أي : فيه كفايتُه .

ورأيت شيئاً عجيباً من الفرق بين طابَع السِّلْم على وجوهٍ ، وبين طابَع الحرب على وجوهٍ أخرى ؛ ففي تلك معاني السُّهولة ، والملايَنة ، والحرصِ على مادَّة الحياة ، وفي هذه معاني العزم ، والمقاومةِ ، والحرصِ على مجد الحياة ، لا على مادَّتها .

(١) أي : المكوية ، والكلمة العربية التي استُعملت قديماً في معنى (المكوجي) هي : المُطَرِّي ـ بتشديد الراء ـ . (ع) .

وتبيَّنت أسلوبين من الأساليب الاجتماعيَّة : أحدهما في فردٍ قد بَنَى أمرَهُ عَلَى : أنَّ أمَّةً تحملُه ، فهو يعيش بأضعف ما فيه : والآخر في فردٍ قد وضع الأمر على : أنَّه هو يحمل أمةً ، فلا يدعُ في نفسه قوَّةً إلا ضاعَفَها .

وعرفتُ وجهين من وجوه التَّربية السِّياسيَّة : أحدهما بالطَّنطنة ، والتَّهويلِ ، والصُّراخ ، واستعارةِ ألفاظِ غير الواقع للواقع ، وتحميلِ الألفاظِ غيرَ ما تحمل ؛ والآخر بالهدوء الذي يَقْهَرُ الحوادث ، والصَّبرِ الذي يغلب الزَّمن ، والعقيدة التي تفرض أعمالَها العظيمةَ على صاحبها وتجعلُ أعظمَ أجرِه عليها أن يقومَ بها .

وميَّزتُ بين أثرَين من آثار الأرض في أهلها : أحدُهما في المصريِّ السَّمْحِ ، الوادعِ ، الألوفِ ، الحَيِيِّ ؛ الذي هو كَرَمُ الطَّبيعة ، والآخر في الإنجليزيِّ العَسِر ، المغامرِ ، النَّفورِ ، الملحِّ على الدُّنيا ، كأنَّه تطفُّلُ الطَّبيعة .

* * *

وألقى ابنُ العمِّ الذي كان معي سمعَه إلى هؤلاء الضُّباط ، وهم من فلاسفة الرَّأي على ما يظهر من حديثهم ، ثُمَّ نقل إليَّ عنهم ، فقال كبيرُهم : لقد فرغتُ من بحثي الَّذي وضعته في فلسفة خُمول الشَّرقيِّين ، وأفضيتُ منه إلى حقائقَ عجيبة ، أظهرُها ، وأخفاها معاً : أنَّ أمةً من هذه الأمم لا يُمَكَّنُ للأجنبيِّ فيها ، ولا تثقُلُ وَطْأتُه[1] عليهم ، ولا يَطول ثَواؤُه[2] في أرضهم ، ولا يحتلُّها مَنْ يطمع فيها ، ما لم يكن سادتُها ، وأمراؤُها ، وكبراؤها ، كأنَّهم فيها دولةٌ محتلَّة .

وهؤلاء الكبراءُ هم آفةُ الشَّرق ؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيدَ في تعظيمهم ، وأن نَمدَّ لهم في المال والجاه ، ونَبْسُطَ لهم اليمينَ ، والشِّمال ، ونُوهِمَهم : أنَّ عظَمَتهم هكذا وُلِدتْ فيهم ، وهكذا وُلدوا بها من أمَّهاتهم ، كما ولدوا بأيديهم ، وأرجلهم . . . وخاصَّةً عظماء رجال الأديان المفتونين بالدُّنيا ؛ فإنَّنا نصنعُ بغُرور الجميع ، وسخافاتهم ، وحرصِهم ، وطمعِهم أشياءَ اجتماعيَّةً ذاتَ خطَرٍ ، لا يصنع لنا مثلَها إلا الشَّياطين ، ومَنْ لنا بالحكم على الشَّياطين ؟ وهذا ما تنبَّه له (غاندي) ذلك المهزولُ الهنديُّ ؛ الَّذي تُقوَّم دنياه بأربعة شلنات ، ولا يزنُ أكثرَ مِنْ بضعة

---

(١) « وطأته » : الوطأة : الضغطة ، والأخذة الشديدة .

(٢) « ثواؤه » : بقاؤه ، ومكثه .

أرطال من الجلد والعظم ، ولا بَطْشَ عنده ، ولا قوّةَ فيه ، وهو مع ذلك جبّارٌ سماوي في يده البَرْقُ والرَّعْدُ يُرى ، ويُسمَع في أرجاء الدُّنيا .

قال ضابط اليمين : وبصناعة الكبرياء هذه الصِّناعةَ يكونُ رجلُ الشَّعب من هؤلاء الشَّرقيين رجل تقليدٍ بالطَّبيعة ، ورجلَ ذلٍّ بالحالة ، ورجلَ خضوع بالجملة ؛ فليس في نفسه : أنَّه سيِّدُ نفسه ، ولا سيِّدُ غيره ، بل أكبرُ معانيه : أنَّ غيرَه سيِّدٌ عليه ، فيكون معه دائماً خيالُ استعبادِه .

وتكلَّم ضابط اليسار : ولكنَّ المترجم لم يميِّز أقواله ؛ لأنَّ ثلاث عشرةَ امرأة كنَّ يصرخْنَ في الرواية الهزليَّة بلحنٍ طويلٍ يقلن في أوَّله : « عاوزين رِجَّالة تدَلَّعْنا . . . » وكانت الموسيقا تصرخُ معهنَّ ، وتُولولِ ، كأنَّها هي أيضاً امرأةٌ محرومةٌ . . .

* * *

ثم أرهفَ أذنَه ، فقال كبيرهم : إنَّ لهؤلاء الشَّرقيين ستَّ حواسَّ : الخمسُ المعروفةُ ، وحاسَّةُ الخمول ؛ الذي خدعتهم عنه الطَّبيعةُ البليدةُ ، فسمَّوه التَّرفَ ، والهزلَ ، واللَّهو ؛ والأمَّةُ الأوربيَّة ؛ التي تحتلُّ بلاداً شرقيَّة تجدُ فيها لصغائر الحياة جيشاً أقوى من جيشها ، فعشرة آلاف جندي بعَتَادهم ، وآلاتهم ، لا يصنعون شيئاً إلا الاستفزازَ ، والتحدِّي ، وإثباتَ : أنَّهم غاصبون ؛ ولكن ما أنت قائلٌ في عشرة آلاف مكانٍ كهذا المسرح براقصاته ، ومومساته ، وخموره ، ورواياته ، وبهؤلاء الرِّجال المخنثين ، الهزليِّين ، الرُّقعَاءِ ؛ الذين هم وحدَهم مُعاهدَةٌ سياسيةٌ ناجحةٌ بيننا وبين شباب الأمَّة . . . ؟

قال ضابط اليمين : نعم إنَّ فنَّ الاحتلال فنٌّ عسكريٌّ في الأوَّل ، ولكنَّه فنٌّ أخلاقيٌّ في الآخر ؛ ولهذا يجب تعيينُ نقطة اتجاه للشَّباب تكون مضيئةً ، لامعةً ، جذَّابةً ، مغريةً ، ولكنَّها في ذات الوقت مُحرِقةً أيضاً ، وهذه هي صناعةُ إهلاك الشَّباب بالضَّوء الجميل ، وما على السِّياسي الحاذق في الشَّرق إلا أن يحمي الرَّذيلة ، فإنَّ الرَّذيلةَ ستعرفُ له صنيعَه ، وتَحميه . . .

فتكلَّم ضابطُ اليسار ، ولكن صوته ذهب في عشرين صوتاً من رجال المسرح ، ونسائه ، يصيحون جميعاً : « يا حِلوة يا خفَّافي ، يا مجنِّنة الشُّبَّان . . . » .

* * *

ولمَّا أَلْممتُ بحوار الضُّباط الثَّلاثة قلتُ لصاحبي : استأْذِنْ لي عليهم أكلِّمهم . ففعل ، وعرَّفني إليهم ، وترجم لهم مقالة (يا شباب العرب) وكان يحملها . فكأنَّما رماهم منها بالجيش ، والأسطول .

ثُمَّ قلت لكبيرهم : لست أنكر أنَّ الإنجليزي لو دخلَ جهنَّمَ ، لدخلها إنجليزيّاً . . . ولا أَجحد : أنَّ له في الحياة مثلَ هداية الحيوان ؛ لأنَّه رجلٌ عمليٌّ : دليلُ منفعته : أنَّها منفعتُه وحَسْبُ ، ثمَّ لا دليلَ غيرُ هذا ، ولا يقبل إلا هذا . فإذا قال الشَّرقيُّ : حقِّي ، وقال الإنجليزي : منفعتي ، بطَلَت الأدلَّةُ كلُّها ، ورأى الشَّرقيُّ : أنَّه مع الإنجليزي ، كالذي يحاول أن يُقنع الذِّئبَ بقانون الفضيلة ، والرَّحمة .

وقد عرفنا : أنَّ في السياسة عجائب ، منها ما يُشْبه أن يَلقَى إنسانٌ إنساناً ، فيقول له : يا سيدي العزيز ! بكل احترامٍ أرجو أن تتلقَّى مني هذه الصَّفعة . . .

وفي السياسة مواعيدُ عجيبةٌ ، منها ما يشبه غرسَ شجرةٍ للفقراء ، والمساكين ، والتَّوكيدَ لهم بالأيمان : أنَّها ستُثمر رُغْفاناً مخبوزةً . . . ثُمَّ بعد ذلك تُطعَّم ، فتثمرُ الرُّغفانَ المخبوزةَ حَشْوُها اللَّحمُ ، والإدام .

وفي السِّياسة محاربةُ المساجد بالمراقص ، ومحاربةُ الزَّوجات بالمومسات ، ومحاربةُ العقائد بأساتذة حرِّية الفكر ، ومحاربةُ فنون القوَّة بفنون اللَّذة . ولكن لو فهم الشَّبابُ : أنَّ أماكنَ اللَّهو في كلِّ معانيها ليست إلا غَدراً بالوطن في كلِّ معانيه !

ولو عرف الشَّبابُ : أنَّ محاربةَ اللَّهو هي أولُ المعركة السِّياسية الفاصلة !

ولو أدرك الشباب : أن أوَّلَ حقِّ الوطن عليه أن يحمل في نفسه معنى الشَّعب ، لا معنى نفسه !

ولو رجع الدِّينُ الإسلاميُّ كما هو في طبيعته آلةً حربيَّةً تصنع من الشَّباب رجال القوَّة !

ولو علم الشَّبابُ : أنَّ روحَ هذا الدِّين ليست : اعتَقِدْ ، ولا تعتقدْ . ولكن افعلْ ، ولا تفعلْ !

ولو أيقن الشَّبابُ : أنَّ فرائض هذا الدِّين ليست إلا وسائلَ عمليَّةً لامتلاء النَّفس بمعاني التَّقديس !

ولو فهم الشَّبابُ : أنْ ليس في الكون إلا هذه المعاني تجعلُ النَّفسَ فوق المادَّة ، وفوق الخوف ، وفوق الذُّل ، وفوق الموت نفسه !

ولو بحث الشَّبابُ النَّفسَ الإنجليزيَّةَ القويَّةَ ليعرفَ بالبرهان : أنَّها نصفُ مسلمةٍ ، فكيف بها لو كانت مسلمةً ؟!..

* * *

وكان المترجم ينقل إليهم كلامي ، فما بلغتُ إلى حيث بلغتُ ، حتَّى شدَّ الضابط على يدي وهزَّها ؛ فنظرت ، فإذا أنا قد كنتُ نائماً بعد سهرةٍ طويلةٍ في ذلك المسرح ، وإذا يدُ المترجم نفسه هي الَّتي تهزني لأنتبه . . .

* * *